

تفسير ابن كثير

يقول تعالى : { ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون } أي اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار يوزعون أي تجمع الزبانية أولهم على آخرهم كما قال تبارك وتعالى : { ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا } أي عطاشا وقوله D : { حتى إذا ما جاؤوها } أي وقفوا عليها { شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون } أي بأعمالهم مما قدموه وأخروه لا يكتف من حرق { وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا } أي لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم فعند ذلك أجابتهم الأعضاء { قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة } أي فهو لا يخالف ولا يمانع وإليه ترجعون قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا علي بن قادم حدثنا شريك عن عبيد المكتب عن الشعبي عن أنس بن مالك [ألا] : م "وسل عليه الله صلى فقال وابتسم يوم ذات م "وسل عليه الله صلى الله عليه وسلم رسول ضحك قال B : تسألوني عن أي شيء ضحكت ؟ [قالوا يا رسول الله من أي شيء ضحكت ؟ قال صلى الله عليه وسلم : [عجت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة يقول أي ربي أليس وعدتني أن لا تظلمني قال بلى فيقول فإني لا أقبل علي شأها إلا من نفسي فيقول الله تبارك وتعالى أليس كفى بي شهيدا وبالملائكة الكرام الكاتبين - قال - فيردد هذا الكلام مرارا - قال - فيختم على فيه وتتكلم أركانه بما كان يعمل فيقول بعدا لكن وسحقا عنكن كنت أجادل] ثم رواه هو وابن أبي حاتم من حديث أبي عامر الأسدي عن الثوري عن عبيد المكتب عن فضيل بن عمرو عن الشعبي ثم قال لا نعلم رواه عن أنس B غير الشعبي وقد أخرجه مسلم والنسائي جميعا عن أبي بكر بن أبي النضر عن عبيد الله بن عبد الرحمن الأشجعي عن الثوري به ثم قال النسائي لا أعلم أحدا رواه عن الثوري غير الأشجعي وليس كما قال كما رأيت والله أعلم وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أحمد بن إبراهيم حدثنا إسماعيل بن علي عن يونس بن عبيد عن حميد بن هلال قال : قال أبو بردة : قال أبو موسى : ويدعى الكافر والمنافق للحساب فيعرض عليه ربه D عمله فيجحد ويقول أي رب وعزتك لقد كتب علي هذا الملك ما لم أعمل فيقول له الملك أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا ؟ فيقول لا وعزتك أي رب ما عملته قال فإذا فعل ذلك ختم على فيه قال الأشعري B : فإني لأحسب أول ما ينطق منه فحذه اليمنى وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا زهير حدثنا حسن بن ابن لهيعة قال دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فجدد وخاصم فيقول هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول كذبوا فيقول أهلك وعشيرتك فيقول كذبوا فيقول أحلفوا فيحلفون ثم يصمتهم الله تعالى وتشهد عليهم ألسنتهم ويدخلهم النار] وقال ابن أبي

حاتم : حدثنا أبي حدثنا أحمد بن إبراهيم حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث قال : سمعت أبي يقول حدثنا علي بن زيد عن مسلم بن صبيح أبي الضحى عن ابن عباس B أنه قال لابن الأزرق إن يوم القيامة يأتي على الناس منه حين لا ينطقون ولا يعتذرون ولا يتكلمون حتى يؤذن لهم ثم يؤذن لهم فيختصمون فيجحد الجاحد بشركه باء تعالى فيحلفون له كما يحلفون لكم فيبعث الله تعالى عليهم حين يجحدون شهداء من أنفسهم جلودهم وأبصارهم وأيديهم ويختتم على أفواههم ثم يفتح لهم الأفواه فتخاصم الجوارح فتقول : { أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون } فتقر الألسنة بعد الجحد وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا عبدة بن سليمان حدثنا ابن المبارك حدثنا صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير الحضرمي عن رافع أبي الحسن قال وصف رجلا جحد قال فيشير الله تعالى إلى لسانه فيربو في فمه حتى يملأه فلا يستطيع أن ينطق بكلمة ثم يقول لارابه كلها تكلمي واشهدي عليه فيشهد عليه سمعه وبصره وجلده وفرجه ويداؤه ورجلاه صنعنا عملنا فعلنا وقد تقدم أحاديث كثيرة وآثار عند قوله تعالى في سورة يس { اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون } بما أغنى عن إعادته ههنا وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا سويد بن سعيد حدثنا يحيى بن سليم الطائفي عن ابن خثيم عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله B هما قال : لما رجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرة البحر قال [ألا تحدثون بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة ؟] فقال فتية منهم : بلى يا رسول الله بينما نحن جلوس إذ مرت علينا عجوز من عجائز رها بينهم تحمل على رأسها قلة من ماء فمرت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفها ثم دفعها فخرت على ركبتيها فانكسرت قلتها فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت سوف تعلم يا غدر إذا وضع الله الكرسي وجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غدا ؟ قال يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : [صدقت صدقت كيف يقدر الله قوما لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم] هذا حديث غريب من هذا الوجه ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأحوال حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا يحيى بن سليم به وقوله تعالى : { وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم } أي تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم ما كنتم تكتُمون منا الذي كنتم تفعلونه بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي ولا تبالون منه في زعمكم لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم ولهذا قال تعالى : { ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون * وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم } أي هذا الظن الفاسد وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلم كثيرا مما تعملون هو الذي أهلككم وأرداكم عند ربكم { فأصبحتم من الخاسرين } أي في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهلككم قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن عمارة عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله B قال : كنت مستترا بأستار

الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشي وختناه ثقفيان - أو ثقفوي وختناه قرشيان - كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم فتكلموا بكلام لم أسمعه فقال أحدهم : أترون أن ا [يسمع كلامنا هذا فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه وإذا لم نرفعه لم يسمعه فقال الآخر : إن سمع منه شيئاً سمعه كله - قال - فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل ا [D } وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن ا [لا يعلم كثيراً مما تعملون * وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين } وهكذا رواه الترمذي عن هناد عن أبي معاوية بإسناده نحوه وأخرجه أحمد ومسلم والترمذي أيضاً من حديث سفيان الثوري عن الأعمش عن عمارة بن عمير عن وهب بن ربيعة عن عبد الله بن مسعود بنحوه ورواه البخاري ومسلم أيضاً من حديث السفينيين كلاهما عن منصور عن مجاهد عن أبي معمر عبد الله بن سبرة عن ابن مسعود B به وقال عبد الرزاق : حدثنا معمر عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : { أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم } قال : [إنكم تدعون يوم القيامة مفدماً على أفواهكم بالفدام فأول شيء يبين عن أحدكم فخذوه وكفه] قال معمر : وتلا الحسن { وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم } ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [قال الله تعالى أنا مع عبدي عند ظنه بي وأنا معه إذا دعاني] ثم افتر الحسن ينظر في هذا فقال : ألا إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم فأما المؤمن فأحسن الظن بربه فأحسن العمل وأما الكافر والمنافق فأساء الظن بأساء العمل ثم قال : قال الله تبارك وتعالى : { وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون * وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم } الآية وقال الإمام أحمد : حدثنا النضر بن إسماعيل القاص وهو أبو المغيرة حدثنا ابن أبي ليلى عن أبي الزبير عن جابر B قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله فقال الله تعالى : { وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين }] وقوله تعالى : { فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعذبوا فما هم من المعتبين } أي سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا هم في النار لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها وإن طلبوا أن يستعذبوا ويبدوا أعمارهم فما لهم أعمار ولا تقال لهم عثرات قال ابن جرير : ومعنى قوله تعالى : { وإن يستعذبوا } أي يسألوا الرجعة إلى الدنيا فلا جواب لهم قال وهذا كقوله تعالى إخباراً عنهم : { قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً صالحين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون }